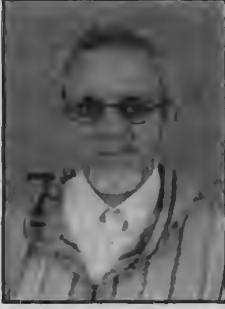


من علماء الأندلس الذين هاجروا
إلى العاصمة مراکش واستوطنوها ودرسوا بها
واحتضنتهم أرضها الطاهرة :



الإمام أبو زيد السهيلي في ضوء عصره ونتائج فكره (1)

للأستاذ عبد الحميد محيي الدين الباعجماني

الأستاذ محيي الدين عبد الحميد من علماء جامعة ابن يوسف بمراكش،
وأستاذ بكلية اللغة العربية بمراكش، وله مجموعة من الأبحاث في الأدب والفقه
والحديث، وهو عضو في المجلس العلمي بمراكش.

* مدخل :

من سنن الله الكونية أن يكون لكل عصر هدايته وقادته، فبوجودهم
يمتد التاريخ وتعلو أقداره، وتتردد أصداؤه وأخباره، إذ هو رهين
بأعمالهم الباقية، وآثارهم الماثلة، فما قيمة أي عصر إذا لم يكن فيه أمثال
الإمام السهيلي؟ (1)

فدو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
لكن كيف يتأتى لكاتب مقال أن يغوص في النتائج الفكرية،
والمعطيات العلمية المتنوعة والزاهرة لمثل هذا الإمام؛ وهي من التشعب
والتعمق بمكان بعيد، كما أنها من حيث الجدة والطرواة محتوية
على كل طريف وتليد لا يغيرها أن انصرفت بعدها قرون، وتطاوالت

(1) «نتائج الفكر» من كتب الإمام السهيلي رحمه الله، وستأتي في المقال إشارات إليه، ونماذج
في آثاره في كتب المشاركة والأندلسيين.

عليها الأحقاب والسنون، إذ بقيت كما كانت حين إنتاجها نفيسه، وظلت على الرغم من نشرها، غزيرة وغميسة، فمازالت كذلك حتى على أرباب اللغة المصاقع، وفحول اللسان العربي الأقحاح، من هنا يأتي العذر إن وقع تقصير، وبدر من الكاتب سوء تدبير وتفكير، على أنه لا مندوحة من الانغمار في معارف أبي زيد، عسى أن يتبدى لنا منها سر من أسرارها، ويتكشف ما غمض من عصره وأفكاره، لا سيما أنه أحد أعلام الحضرة المراكشية، الذين اشتهرت بهم طوال القرون الخالية، كالقاضي عياض رحمه الله وغيره ممن سارت بذكرهم الركبان، وممن لا تزال أحاديثهم تجري على كل لسان، وإذا كان القاضي عياض قد اشتهر حتى قيل : «لولا ما ذكر المغرب»، فإن الإمام السهيلي لم ينصفه عصره، ولم يبرز في تاريخ هؤلاء الأعلام فضله وقدره؛ ولعل فيما يكتشفه هذا المقال، بعض الأسباب الداعية، والمبررات التي تبدو في أغلبها واهية، فكلاهما من الأندلس أو بين المغرب والأندلس، ولكنه لم يتح للإمام السهيلي ما أتيج لمعاصره (2) القاضي عياض.

ولعل بعض الأذهان يتبادر إليها عند ذكر الإمام السهيلي، الموقع الذي يحصره في إطار الأعلام ذوي المزارات، بعيداً عن الجانب الذي ينبغي أن يكون غالباً في تاريخه، وهو المقام المتميز الذي احتله في عصره، والمنزلة الخاصة التي تبوأها بين المبرزين من أمثاله، وذلك حتى لا نغمطه حقه، ولا نبخسه وزنه وقدره؛ إننا إذن إزاء علم يشرف الباحث باختياره، وتتملى الأنظار بآثاره وأخباره، وتتطلع الأبواب إلى جليلة أمره، كما تهفو العقول إلى كشف أعماق غوره، فهو يغري والحالة هذه باستكناه أبعاد شخصيته، واستقراء حقيقته ونوعيته، فهو في اعتباري فريد عصره، على الرغم من انطماس قدره، ولا أعد والحقيقة إن أنشدت :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

والحق أنه، إذا كان الإعجاب بالإمام السهيلي، قد لامس شغاف القلب، ومازج نبض الإحساس، وأخذ بمجامع العاطفة، فإن منطلق

(2) سبق القاضي عياض السهيلي في الولادة باثنتين وثلاثين سنة، وتأخر السهيلي في الوفاة بسبع وثلاثين سنة.

هذا كله، هو فكره الثاقب، وعلمه المتعدد الجوانب، على أن ينظر إليه من خلال عصره، وما يمت إليه من نتائج فكره، مدعاة إلى الوقوف على فترة من تاريخ الغرب الإسلامي، شهدت تطوراً مهماً في مختلف مظاهر الحضارة، مع إيلاء الجانب العلمي والأدبي أهمية خاصة.

2 - عصره (لمحات منه) :

بادئ بدء نتوقف لحظة عند حدود العصر الذي شهده، وعرف نبوغه بين أنداده، فهو مخضرم الدولتين المرابطية والموحدية، ولد زمن علي بن يوسف بن تاشفين، وبلغته، وهو في الأندلس، أصداء الدولة القوية، لاسيما في عهد يوسف رحمه الله، وبالنظر إلى رهافة حسه، ودقة ملاحظته، فإنه استوعب المكانة التي أحرزتها الدولة المرابطية، التي تعدت المغارب إلى عدوة الأندلس، وهو الذي ينحدر من الجد الأعلى الداخل إلى جنوب ريبانيا من المشرق، لاسيما بعد معركة الزلاقة، التي سبقت ميلاده بحوالي ثلاثة عقود، ومثلها لا ينسى ولو بعد قرون، لكن السهيلي، وهو إنذاك في يفاعته وعنفوانه، لانكاد نلمس له أثراً فيما أدرك من الدولة المرابطية.

بل لا نكاد نجد له إزاء أقرانه ما يدل على مشاركةٍ ما في الحياة العامة، تكون في مستوى محتده العريق، ومجده الأصيل، إذ نشأ كما يقول الإمام الذهبي في بيت علم بناء على قوله : « [...] ولد الخطيب بن الإمام الخطيب أبا عمر » (3) ومثله ما جاء عند ابن خلكان من قوله : « عبد الرحمن بن الخطيب أبا محمد عبد الله بن الخطيب أبا عمر » (4) وعنه نقل ابن فرحون في «الديباج المذهب» يضاف إلى هذا ما اكتسبه هو من التقدير والإجلال، بعلمه وأدبه، وما أثرى به الحياة الفكرية في القرن السادس، من تأليفه المفيدة، (5) وكذا أخذ جلة من الأندلسيين عنه، ممن انتفعوا به علماً وأدباً، وساروا بذكره في الأقطار والأمصار؛ مما جعل الإمام الذهبي، وشهادته من القيمة بمكان، يحليه بقوله :

(3) تذكرة الحفاظ 4/ 142 نقلاً عن أمالي السهيلي ص 7، (ت الذهبي 748هـ/ 1374م).

(4) وفيات الأعيان ج 1/ 280 (النسخة القديمة دون تاريخ ودون تحقيق) (ت 681هـ).

(5) الديباج / ص 150، (وابن فرحون توفي 799/ 1397).

«العلامة الأندلسي المالقي النحوي الحافظ العلم صاحب التصانيف» (6).

ووصفه أبو عبد الله العبدري الحاحي في رحلته المغربية الحجازية «بالأستاذ أبا القاسم السهيلي (7)» وشهادة الرحالة المغربي، الذي قلما اعترف بالعلم إلا لذوي النبوغ، كافية في هذا المجال، وتقديره للسهيلي آت من كونه وجد في تصانيفه، مالم يتوفر له عند غيره في الغرب الإسلامي، وكذا في الشرق خلال رحلته، ولم يلاحظ عليه إلا ما اعتبره وهما يتعلق بموقع «المُغمس» في الحجاز، على الرغم من دقة الملاحظة، وقوة الحدس لدى هذا الرحالة المغربي، الذي لا يترك شاذة ولا فادة، دون الوقوف عليها، والتنبية على ما فيها، كائنا من كان صاحبها، فلا يعرف محاباة ولا مجاملة، من ثم أبرز تقديره لإمامنا السهيلي، وتنويعه بفكره وعلمه، وسوف تمر بنا شهادة أخرى له في آخر المقال، تتعلق بكتابه : (الإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام).

وفي هذا الإطار تدرج مجموعة من الإفادات والشهادات، نستقيها ممن هم أعرف به وأقرب إليه، من تلاميذه، مثل ابن عربي الحاتمي الذي وصفه «بشيخنا الضرير أبي زيد السهيلي المالكي الإمام» والمعروف أن ابن عربي توفي قبل منتصف القرن السابع الهجري؛ ومثل أبي الخطاب المعروف بابن دحية (8) في كتاب (المطرب من أشعار أهل المغرب) الذي قال في حقه وهو يتحدث عن البيئة التي ترعرع فيها «نشأ بمالقة، وبها تعرف وفي أكنافها تصرف، حتى بزغت في البلاغة شمس، ونزعت به إلى مطامح الهمم نفسه» (9) وقال عنه بعد أن ذكر أعلاما من شيوخه الذين أخذ عنهم، والعلوم التي لقنوها إياه : «وكان -السهيلي- رحمه الله أقام للتصرف وعلل النحو برهانا، وتيم ألبابا وأذهانا،

(6) نفس المصدر / ص 151.

(7) أنظر الرحلة / ص 169 (والعبدري لا يعلم في تاريخ وفاته بالضبط عاش في القرن السابع.

(8) توفي ابن دحية عام 633 هـ قبل ابن عربي الحاتمي بثلاث سنوات، وكلام ابن عربي ورد في مسامرته، أنظر «الأعلام بمن حل مراكش» و«أغمات في الإسلام» للتعارفي ج 8 / 66 بتحقيق بن منصور.

(9) ابن دحية، المطرب / ص 230 بتحقيق : إبراهيم الأبياري وجماعة.

فترشف من ماء العربية أتي مزنه، وتوطأ من أكنافها كل سهله وحزنه، وأفاض على الطلبة من سجله، وجلب على النحاة بخيله ورجله، وتلقى الراية باليمين، وحوى الغاية بالهزيل والسمين». (10) وشهادة ابن دحية في حق أستاذه السهيلي، جرت على طريقته الخاصة في التعبير، من حيث السجع واللغة، وقد لاحظ المقرئ في «نفح الطيب» أسلوبه حين قال : مبررا هذا الاتجاه عنده : «وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة، حتى صار حوشى اللغة عنده مستعملا غالبا [...] وكان قصده - والله أعلم - أن يتفرد بنوع يشتهر به دون غيره». (11) وقد لفت نظري، وأنا أقف على ترجمة أبي الخطاب، وكذا على ترجمة ابن عربي الحاتمي، في نفح الطيب، أن المقرئ لم يعدهما من تلامذة الإمام السهيلي، بالرغم من حرصه على ذكر قائمة شيوخهما، فهل الأمر يرجع إلى قلة شهرة الإمام في عصره؟ وما تلاه في عصور حتى زمن المقرئ؟ خاصة أن ابن دحية، ذكر في ترجمة الشاعر الطليق الرواني، المتوفى قريبا من الأربعمئة، وهو يستطرد : «وأنشد في جماعة من شيوخه رحمهم الله منهم الأستاذ النحوي أبو القاسم السهيلي... إلخ. وذكر في ترجمة أبي محمد القاسم بن عبد الرحمن المالقي...» وهو شيخنا الأستاذ النحوي أبا القاسم السهيلي» (12) ولعلنا نلاحظ أن ابن دحية حريص على تحلية الإمام السهيلي بالأستاذ النحوي، علاوة على إثبات مشيخته له.

وإذا تأكدنا من مشيخة الإمام السهيلي لابن دحية، بما لا يعفى أمثال المقرئ، فإن ابن دحية لا يكاد يترك فرصة، وهو يتحدث عن ترجمته في كتاب المطرب، دون أن يستغلها للتنبؤ بأستاذه وشيخه، حيث نجد إفادات كثيرة في ثنايا التراجم، سواء قبل ترجمته لشيخه، أو في أثناء الترجمة، والمقرئ مع ذلك ينقل عن أبي الخطاب الأبيات العينية المشهورة

(10) نفس المرجع ص 232، « » « » « » .

(11) نفح الطيب ج 1، ص 368 - 369 (والمقرئ ت 1041هـ).

(12) أنظر مثلاً «المطرب» ص 217 و 232 و 72، في ترجمة مروان بن عبد الرحمن، أو ترجمة أبي محمد القاسم بن عبد الرحمن المالقي.

التي أنشده إياها شيخه السهيلي، وأياً ما كان، فقد تولى ابن دحية إزالة هذا الإشكال، بقوله في المطرب «قرأت عليه، وسمعت كثيراً من أماليه التي أملاها علي في معاني الكتاب العزيز وأنواره، ودقائق النحو وأسرار، وغوامض علم الأصول وأغواره».(13)

3 - لماذا الوقوف على هذه الإشكالات ؟

الذي حدا إلى الوقوف على ما اكتنف حياة الإمام السهيلي من إشكالات، ما لاحظت من انغمار شخصيته بكل تجلياتها، وانطماس المواهب المتميزة عنده، دون أن تحدث أثراً أو صدى كغيره من أعلام الأندلس، إذ أدرك من حياة القاضي عياض مثلاً ما يربو عن ثلاثة عقود، فأين شهرته إزاء شهرة الذي قيل فيه : «لولا عياض ما ذكر المغرب» ؟ وإذا كانت هذه العبارة غير منسوبة إلى قائلها بالتحديد، فإن كلاهما عاصرا الدولتين العظيمةين المرابطية والموحدية، وشاهدا معا بالبصر والبصيرة سقوط المرابطين، وقيام دولة الموحدين، كما أن أثر ذلك في سبته هو أثره في مالفقة، فمن أين جاء هذا التباين؟ فعلى الرغم من أن بعض مترجميه كابن الأبار قال في أثناء ترجمته : «تصدر للإقراء والتدريس، وإسماع الحديث، فبعد صيته، وجل قدره»، فإن الحقيقة التي لمسناها عند مترجميه، تجعلنا نقف من عبارته «بعد صيته وجل قدره» موقف التساؤل، إلا إذا بررنا ضعف شهرته، بالقياس إلى نظرائه، لاسيما معاصروه، بأن أبا زيد عبد الرحمن السهيلي بعد إصابته في عينيه وهو ابن السابعة عشرة، اضطر إلى الإنزواء، بعيداً عن الأضواء، وأسباب الظهور، رهين بلده، غير معني بربط العلاقات مع ذوي النفوذ، فكان من نتائج هذا الوضع غيابه أو تغييبه عن الأنظار، بحيث لم يكن له صدى، خلال المدة التي أدركها من حياة الدولة المرابطية، في عهد علي ابن يوسف حسبما سبقت الإشارة إليه في أول المقال؛(14) وقد يكون هذا الشعور هو الذي حدا إلى الاتصال بالموحدين،

(13) أنظر المطرب، ص 235.

(14) أنظر الأعلام للمراكشي ج 8/80، تحقيق عبد الوهاب بن منصور.

سواء أكان ذلك تلقائياً، أم بواسطة من أوعز إليه بالمبادرة إليهم، ويفهم من قول أبي الخطاب ابن دحية الاحتمال الثاني، بل ينسب الفضل في ذلك إلى نفسه، يقول معبراً عن الحالة المعيشية لشيخه : «وكان ببلده يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف» (15) [...] إلى أن وصلت إليه، وصحح «الروض الأنف» بين يديه، فطلعت به إلى حضرة مراکش فأوقفت الحضرة عليه، فأمرُوا بوصوله إليهم، وبذلوا له من مراكبهم وخيلهم ونعمتهم، وقوبل بمكارم الأخلاق، وأزال الله عنه علام الإملاق، واستقبل بالجاه الجسيم، والوجه الوسيم، وفي كل يوم يجنيهم من حديثه أزهاراً، ويقطفهم من ملحّة آسا وبهاراً، حتى حسرهُ الطلبة وجردوا لملامه حساماً، وحددوا للكلام فصولاً وأقساماً، وكان وصوله إلى الحضرة والفجر قد عسا وذبل عوده، وذهب العيش وأفل سعوده، فعندما عاش مات، وهيئات من الانقطاع لغير الله هيئات [...] ثم أورد أبياتاً في هذا المعنى لأبي الطاهر محمد بن يوسف التميمي. (16)

ها أنذا في التراب وحدي

فلا ظهير ولا نصير

بالله هب لي دعاء صدق

يسمو به باعي القصير

أسـرفت يا رب في خطايا

أنت بها عالم بصير (17)

هكذا بتبين أن السهيلي رحمه الله غير مشتهر اشتهاراً أنداده، حتى كتب أو أملى كتابه «الروض الأنف» واطلع عليه الموحدون، فأعجبوا به أيما إعجاب، وإذا كان إملاؤه الكتاب قد تم في أول عام 569 كما قال في مقدمته، فإن استدعائه إلى عاصمة الموحدين، لم يتم إلا بعد ذلك بحوالي

(15) الفقرة الأولى من هذا النص، وردت عند ابن خلكان، ونقلها عنه أمثال الناصري في الاستقصاء.

(16) من أهل سرقسطة، (توفى 538) فهو معاصر لكل من السهيلي والقاضي عياض.

(17) ورد في النص : علام الإملاق جَ علامة. وبهاراً : نبات طيب الرائحة. عسا : جف.

عشر سنوات على وجه التقريب، ففُضِيَ في مراكش نحو ثلاثة أعوام قبل وفاته رحمه الله، وهو ما عناه أبو الخطاب ابن دحية والنص السابق بقوله : «... فعندما عاش مات» ويفهم من هذا السياق أن السهيلي قضى من عمره حوالي ثلاثة وسبعين سنة، لم يتعرف إليه خلالها أمير الموحدين، حتى السنوات الأخيرة من حياته، ولولا ابن دحية لبقى شيخه في مالقة مغموراً، لا علم لدى إمارة الموحدين بقيمته، على ما عرف عنهم من الحرص على استدعاء النبغاء وذوي النباهة من الأندلس إلى مراكش، يدل على ذلك مجيء أمثال شيخ السهيلي أبا بكر بن العربي المعارفي، ووفاته بفاس، ومقدم القاضي عياض كذلك إلى مراكش، ووفاته بها، بصرف النظر عن أسباب مجيء كل منهما، وما قيل عن وفاتهما أو مقتلهما رحمهما الله، إذ المهم في هذا المجال أن نحاول إزاحة وجه الإشكال فيما يخص غياب الإمام السهيلي عن منطقة الضوء التي حظى بها أمثاله :

4 - موازنة بينه وبين القاضي أحمد بن مضاء :

والمقارنة بينه وبين القاضي أبي جعفر أحمد بن مضاء القرطبي، (18) تزيد هذا الوضع تأكيداً، فأبو جعفر احتفى به الموحدون بما يليق بأمثاله، فولوه قضاء الجماعة بالعاصمة مراكش كما ولوه قضاء فاس، وكان معاصراً، بل مجايلاً لأبي زيد السهيلي، فقد توفى ابن مضاء بعده بحوالي عشر سنوات، وكانت مكانته العلمية مقارنة لمستوى الإمام السهيلي في اللغة خاصة، وربما في الميادين المعرفية الأخرى، حلاه ابن دحية بقوله :

«الشيخ الفقيه الأجل، إمام النحويين، قاضي قضاة المغرب، بقية أعلام مشيخة الأندلسيين»، (19) وقال عنه ابن فرحون في الديباج كان مقرئاً مجوداً، محدثاً أكثر أقدم السماع، واسع الرواية، عاليها، ضابطاً لما يحدث به، ثقة فيما يأثره، نشأ منقطاً إلى طلب العلم وعنى أشد

(18) توفي رحمه الله سنة 592، أنظر مقالاً وافياً عنه في حوليات كلية اللغة العربية / ع

6/1416 هـ 1995 م، لعبد الحميد محبي الدين كاتب هذا الموضوع / ص 97.

(19) المطرب من أشعار أهل المغرب / ص 91.

العناية بلقاء الشيوخ، والأخذ عنهم، فكان أحدهم ختمت به المائة السادسة، من أفراد العلماء وأكابرهم، ذاكرا لمسائل الفقه، عارفا بأصوله». (20) وبعد أن ذكر ابن فرحون أن له مشاركة في معارف عصره كلها، أورد قائمة بأسماء الشيوخ الجلة الذين تلقى عنهم المعارف بالأندلس، كابن العربي المعافري وعبد الحق بن عطية، وأنه لقي بسببته أبا الفضل عياضا [...] وقال : «كان حافظا بصيرا بالنحو، مختارا فيه، مجتهدا في أحكام العربية، فتفرد فيها بآراء ومذاهب شذ بها عن مألوف أهلها، وصنف فيما كان يعتقده منها كتابه «المشرق في النحو» «وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان». (21) وتحدث عنه عبد الواحد المراكشي، «ضمن قضاة يعقوب ابن يوسف الموحي»، (22) كما ذكر «أنه تولى القضاء في عهد كل من أبي يعقوب يوسف وصدر من خلافة أبي يوسف المنصور». (22) وأشار الكتاني في فهرس الفهارس والأثبات إلى أن ابن مضاء له برنامج في مشيخته؛ ونوه السيوطي في «بغية الوعاة» بجوانب ثقافته، ومناحي اختصاصاته، حتى في الشعر، والطب، والحساب، والهندسة، هذا كله أوردناه، لأن الموازنة بين هاتين الشخصيتين، قد استجمعت الشرائط، واستوفت العناصر، المبررة لهذه المقارنة، بغية الوصول إلى أنه بقدر ما طبقت شهرة أبي جعفر ابن مضاء الآفاق، بقدر ما خفت صوت أبي القاسم السهيلي، ونؤكد هنا أن الشهرة التي جاءت متأخرة في حياة أبي القاسم، من الطبيعى أن لا يناله منها ما نال أبا جعفر ابن مضاء الذي تولى المناصب السنية، وحظى بما يستحقه أمثاله، وقد يخفف من حال الإمام السهيلي، من هذه الناحية، أنه حاول في أخريات عمره، أن يتدارك ما فات، ولكن هيئات، ومعتمدنا مقدمة كتابه «الروض الأنف» حيث قال «الحمد لله الذي ألحقنا بعصابة الموحدين، ووفقنا للاعتصام بعروة هذا الأمر المتين، إمامة سيدنا الخليفة أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير

(20) الديباج المذهب، ص 47 - 48.

(21) الديباج المذهب، نفسه، وما بعدها.

(22) المعجب / ص 247 ثم ص 264 / بعناية : العريان، والعلمي.

المؤمنين الساطعة أنوارها في جميع الآفاق، المطفئة بصوب
سحائبها وجوب كتائبها حجرات الكفر والنفاق.

في دولة لحظ الزمان شعاعها
فارتد منكفئاً بجفن أرمـد
من كان مولوداً تقدم قبلها

أو بعدها فلأنه لم يولد

وبعد أن أشار إلى صنيعه في الكتاب، توقف عند استصعابه
المشروع، وكأنه أراد أن يؤكد معرفته سلفاً بأن كتابه سيرد الحضرة
الموحدية «فبينما أنا أتردد تردد الحائر، إذ سنح لي هناك خاطر، أن هذا
الكتاب سيرد الحضرة العلمية، المقدسة الإمامية، وأن الإمامة ستلحظه
بعين القبول، وأنه سيكتب للخزانة المباركة، عمرها الله بحفظه وكلاءته،
وأمد أمير المؤمنين بتأييده ورعايته، فينتظم الكتاب بسلك أعلـاقها،
ويتسق مع تلك الأنوار في مطالع إشراقها». (23) وبلغت النظر في هذه
الفقرات، أن الإمام السهيلي يتحدث عن الموحدين على أنهم محقون في
مذهبهم، حتى إنه وصف إمامتهم بأنها موعود ببركتها على لسان
الصادق الأمين؟ فهل كان يعتقد ذلك، وهو المالكي المذهب، كما أثبت
بعض مترجميه؟ وهل كان ينظر إلى ابن تومرت باعتباره المهدي
المنتظر كما زعم؟ وأشير هنا إلى أن النسخة التي اعتمدتها هي المطبوعة
عام 1332هـ / 1914م على نفقة السلطان عبد الحفيظ العلوي، وقد
وردت فيها العبارات المذكورة آنفاً بين معقوفتين، مع الإشارة في
هامش الفقرات الأولى، إلا أنها ليست من الأصل المطبوع، وإنما هي
من نسخة ثانية؟ لا بد إذن من التحري والتحفـظ إزاء هذا الكلام،
لا سيما أننا لم نجد عند أغلب مترجميه أن أمير الموحدين يوسف ابن
عبد المومن، أو ولده يعقوب، قد ولاه أحدهما منصبا ساميا، لأن
السهيلي قدم إلى مراكش آخر عهد يوسف، وتوفي خلال السنة
الثانية من ولاية يعقوب، والعبارات الأولى ورد فيها وفق ما نسب

(23) مقدمة الروض الأنف / ص 3.

إليه «أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين» ومفهومها يعني الثلاثة : يعقوب، ويوسف، وعبد المومن بن علي وليس قبلهم أمير. لكن جاء في إشارة للأستاذ محمد المنوني رحمه الله في «مذكرات في التراث المغربي» قوله «وتجاوبا مع المركز العلمي للمنصور، يتنافس المؤلفون في إهداء كتبهم إليه، بدءاً من أبي زيد عبد الرحمان السهيلي في خطبة «الروض الأنف»، (24) لكن عبارة السهيلي دالة على اضطراب في تحديد أمير الموحدين المقصود، لأن تأليف الكتاب تم سنة 569 هـ ولا يتصور أن يهدى المؤلف كتابه إلا لمن يتولى الأمر، وهو يوسف بن عبد المومن حينذاك، يضاف إلى هذا أن المهدوية والعصمة، بدأت في عهد المنصور تتوارى، بل بدأ الخليفة الموحي هذا يندد بها، ويسقُّه من يقول بها، فكيف يتجاوب السهيلي مع فكرة ابن تومرت في كتابه، وقد أصبحت في عهد يعقوب بن يوسف أمراً منكراً، وغير مرغوب فيه؟

وإذا كان بعض مترجميه، ولهم مكانتهم في هذا المجال، كابن الجزري، قد قال : «طلب إلى مراکش ليأخذوا عنه، فحظى بها، وولى قضاء الجماعة، وحسنت سيرته» (25) وكذا الذهبي في «تذكرة الحفاظ» الذي قال : «وبلغنا أن السهيلي ولي قضاء الجماعة، فحمدت سيرته» (26) فإن بقية المترجمين، ولا سيما أمثال أبي الخطاب بن دحية، لم يذكروا ولايته للقضاء؛ وعلى أي فإن محاولة السهيلي التقرب من أمراء الموحدين، لم تجد نفعا كثيرا، فيما يتعلق بالشهرة التي يستحقها ونالها أمثاله كالقاضي عياض، وأبي جعفر بن مضاء القرطبي، غير أن إملاءاته في كتبه الفريدة قد أسدت إليه شهرة، لكن بعد وفاته رحمه الله، فصح فيه قول تلميذه ابن دحية.

(24) مذكرات التراث المغربي، مجلد / 199.

(25) ابن الزري محمد بن ممد شمس الدين الدمشقي، توفي رحمه الله 833 هـ / 1429 م، في

كتابه غاية النهاية في طبقات القراء، نقلا عن الأعلام لعباس بن إبراهيم ج 8 / 81.

(26) أنظر بدائع الفوائد / ج 1، ص 61 / لابن قيم الجوزية.

5 - نتائج فكره، وآثارها :

يدل على ذلك ما نجده من أثر لكتبه في المغرب والمشرق، ويكفي أن كتابه «نتائج الفكر» وغيره قد كان له صدى قوي لدى أعلام المشرق، كابن قيم الجوزية، الذي لا يفتأ يعتمد على كتاب السهيلي هذا، يذكره أحيانا، ويوري عنه أحيانا، لكنه لا يبرح السياق العام لموضوعات هذا الكتاب، وذلك في فوائد «بدائع الفوائد» الذي يعد من أبدع ما كتبه ابن قيم رحمه الله، إذ أبان فيه ضلalcته اللغوية، وفهمه الدقيق لأسرار البلاغة العربية، وهو كتاب ضخم بالقياس إلى كتاب السهيلي؛ يقول مثلا : «جعلت علاقة التصغير ضم أوله وفتح ثانيه، وحكمة ذلك، والله أعلم، ما أشار إليه السهيلي فقال : التصغير تقليل أجزاء المصغر...» (27) إلخ. ونقل كلامه في إحدى فوائده المتعلقة بسبب «إضافة ظروف الزمان إلى الأحداث الواقعة فيها» وكذا نقل كلامه في إحدى فوائده المسماة «فائدة عظيمة المنفعة» حيث بدأ بقول سيبويه : «الواو لا تدل على الترتيب ولا التعقيب، تقول : صمت رمضان وشعبان، وإن شئت : شعبان ورمضان، بخلاف الفاء وثم... إلخ. وبعد كلام سيبويه، أردف ابن القيم تعقيب السهيلي، وفيه : قال السهيلي وهو كلام مجمل يحتاج إلى بسط وتبيين...» إلخ. (28) ونجد في كتاب «نتائج الفكر» ما يلي «مسألة في أن الواو لا تدل على الترتيب ولا التعقيب» وفي مكان آخر من هذه الفائدة ذات المنفعة العظيمة كما قال ابن القيم، نقل عن السهيلي وإن لم يذكره (ففي «نتائج الفكر» ص : 214)، (في بدائع الفوائد ج : 1 / 65) تماما؛ (29) وفي (بدائع الفوائد) نقل ابن القيم عن السهيلي في كتابه المذكور، في موضوع «بدل البعض من الكل وبدل المصدر من الاسم» وذلك في إحدى فوائده لكن دون الإشارة إلى السهيلي في «نتائج الفكر» في إحدى مسائله المتعلقة بإعراب قوله تعالى : ﴿والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ بالنص كما نجد ابن القيم أحيانا يرد

(27) انظر بدائع الفوائد / ج 1، ص 37 / لابن قيم الجوزية.

(28) بدائع الفوائد، ج 1 / 61.

(29) ج 2 منه / ص 43 / وقارن بنتائج الفكر / ص 240.

على السهيلي، كأن يقول مثلاً : هذا تعبير السهيلي وهو بعيد جداً، بل الصواب في (كذا وكذا) (30)، وينقل أيضاً عنه حرفياً، أو ينصرف في التعبير، كما نجد في إحدى فوائد ابن القيم، وهي تقابل ما يوجد في إحدى مسائل السهيلي، وذلك ما يتعلق بقول الله تعالى : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ من سورة البقرة؛ وهذه الفوائد لم يحل ابن القيم فيها على كتاب السهيلي «نتائج الفكر». وفي فصل متقدم ورد في الجزء الثالث من «بدائع الفوائد» بدأه ابن القيم بقول الله تعالى : ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ وقال : «وانتصاب خوفاً وطمعاً قيل هو على الحال، أي ادعوه خائفين طامعين، ثم قال : «وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره» وأشير هنا إلى أن السهيلي رتب كتابه على أبواب كتاب الجمل لأبي القاسم عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي المتوفى 337هـ وذلك حسب السهيلي في مقدم كتابه «نتائج الفكر» «لميل قلوب الناس إليه، وقصر الهمم عليه»؛ (31) ونجد أثراً أكبر لمؤلفات السهيلي، في أمثال جلال الدين السيوطي؛ ويتضح هذا الأثر في كتابه «مفحمت الأقران في مبهمات القرآن» ففي أوله ينقل عن السهيلي وهو يتحدث عن هذا العلم (علم المبهمات) يقول : «قال السهيلي هذا دليل على شرف هذا العلم وأن الاعتناء به حسن». وهو يبنى بالدليل هنا ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (32) عن ابن عباس رضي الله عنهما : «مكثت سنة أريد أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرا على رسول الله ﷺ لا يمنعي إلا مهابته».

وقال عكرمة «طلبت اسم الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشر سنة». يقول السهيلي معقباً «فهذا أوضح دليل على اعتنائهم بهذا العلم ونفاسته عندهم». (33) هذا فضلاً

(30) نفس الجزء / ص / 44.

(31) أنظر بدائع الفوائد / ج 2 / 47 وقارن بنتائج الفكر / 243.

(32) كتاب التفسير من الصحيح / الباب 4915 / أنظر الفتح ج 8 / 659 / مع القسطلاني / 7 / 395.

(33) أنظر «التعريف والأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام / المقدمة / ص 13. تحقيق : الدكتور هيثم عياش بعنوان «غوامض الزملاء المبهمة والأحاديث المسندة في القرآن».

عن أن كل من كتبوا في هذا العلم بعد السهيلي عالة عليه، وتبع له، يؤكد هذا قول أحد الباحثين المشاركة المعاصرين.(34) وهو يتحدث عن «مفحات الأقران» «وكان أول من صنف في ذلك فيما علمت أبو القاسم عبد الرحمان السهيلي (ثم ذكر اسم الكتاب) وأردف قائلاً : وذيل عليه محمد بن علي المعروف بابن عسكران (ت 636هـ) في كتابه المسمى «التكملة والإتمام لكتاب التعريف والإعلام» وذكره السيوطي باسم «التكميل والإتمام» ثم جمع بينهما القاضي بدر الدين المعروف بابن حمامة (ت 733) في كتاب سماه «التبيان في مبهمات القرآن» ونجد الحقيقة عند الرحالة العبدري الحاحي الذي سبقت الإشارة إلى رحلته، يقول عن ابن جماعة وعن كتبه «ومنها كتاب هذا فيه حذو السهيلي في كتاب «الأعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام» أغار فيه على الكتاب المذكور إغارة، وسماه «غرر البيان في مبهمات القرآن»(35) وهذه الشهادة كافية وذات قيمة بالنسبة لإنتاج الأداء السهيلي، سواء تعلق الأمر «بالروض الأنف»، أو «نتائج الفكر»، أو «التعريف والأعلام»... إلخ.

وأختم بقوله رحمه الله في أول كتابه «نتائج الفكر في علل النحو»
«إنما العلم حياة والجهل موت ... إلى قوله منشداً :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله

فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت

فليس له حتى النشور نشور»

(34) انظر مجلة البصائر / ع 6 / سنة 1986، والباحث هو ريباد خالد الطباع.

(35) رحلة العبدري / ص 231.